العام الجامعي

2022 -2023

الأسلوب النبوي

في

التعامل مع غير المسلمين

إعداد

أ.م.د/ خيري أحمد عبد العزيز

الفرقة الرابعة عام لغة عربية دراسات إسلامية

رؤية الكلية

كلية التربية بالغردقة مؤسسة رائدة محليا ودوليا في مجالات التعليم والبحث العلمي وخدمة المجتمع بما يؤهلها للمافسة على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي.

رسالة الكلية

تلتزم كلية التربية بالغردقة بإعداد المعلم أكاديميا ومهنيا وثقافيا، من خلال برامجها المتميزة بما يؤهله للمنافسة والتميز في مجتمع المعرفة والتكنولوجيا، ومواجهة متطلبات سوق العمل محليا وإقليميا، وتهتم بتطوير مهارات الباحثين بما يحقق التنمية المستدامة وتوفير خدمات تربوية لتحقيق الشراكة بين الكلية والمجتمع

السيرة النبوية

خصائصها - مصادرها

خصائص السيرة النبوية:

اختصت السيرة النبوية بعدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورية لعلماء الشريعة والدعاة إلى الله والمهتمين بالإصلاح الاجتماعي، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس بأسلوب يجعلهم يرون فيها المعتصم الذي يلوذون به عند اضطراب السبل واشتداد العواصف، ولتتفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم، ويكون الإصلاح الذي يدعو إليه المصلحون، أقرب نجحا وأكثر سدادا .ونجمل فيما يلي أبرز مزايا السيرة النبوية:

الأولى:

-أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل، أو عظيم مصلح فقد وصلت إلينا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا مما لا يترك مجالا للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى، ومما ييسر لنا معرفة ما أضيف إليها في العصور المتأخرة من أحداث أو معجزات أو وقائع أوحى بها العقل الجاهل الراغب في إضفاء الصفة المدهشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه من جلالة المقام وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة.

الثانية:

-إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته، وطفولته وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة، إلى أن بعثه الله رسولا كريما، ثم نعرف بشكل أدق واوضح وأكمل كل أحواله سنة فسنة، مما يجعل سيرته عليه الصلاة والسلام واضحة وضوح الشمس، كما قال بعض النقاد الغربيين :إن محمدا (عليه الصلاة والسلام) هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس.

وهذا ما لم يتيسر مثله ولا قريب منه لرسول من رسل الله السابقين، فموسى عليه السلام لا نعرف شيئا قط عن طفولته وشبابه وطرق معيشته قبل النبوة، ونعرف الشيء القليل عن حياته بعد النبوة، مما لا يعطينا صورة مكتملة لشخصيته، ومثل ذلك يقال في عيسى عليه السلام، فنحن لا نعرف شيئا عن طفولته إلا ما تذكره الأناجيل الحاضرة، من أنه دخل هيكل اليهود، وناقش أحبارهم، فهذه هي الحادثة الوحيدة التي يذكرونها عن طفولته، ثم نحن لا نعلم من أحواله بعد النبوة إلا ما يتصل بدعوته، وقليلا من أسلوب معيشته، وما عدا ذلك فأمر يغطيه الضباب الكثير.

فأين هذا مما تذكره مصادر السيرة الصحيحة من أدق التفاصيل في حياة رسولنا الشخصية، كأكله، وقيامه، وقعوده، ولباسه، وشكله، وهيئته، ومنطقه، ومعاملته لأسرته، وتعبده، وصلاته، ومعاشرته لأصحابه، بل بلغت الدقة في رواة سيرته أن يذكروا لنا عدد الشعرات البيض في رأسه ولحيته صلى الله عليه وسلم.

الثالثة:

- أن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا، وإذا قارنا هذا بما يرويه المسيحيون عن سيرة عيسى عليه السلام، وما يرويه البوذيون عن بوذا، والوثنيون عن آلهتهم المعبودة، اتضح لنا الفرق جليا بين سيرته عليه السلام وسيرة هؤلاء، ولذلك أثر بعيد المدى في السلوك الإنساني والاجتماعي لاتباعهم، فادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام ولبوذا جعلهما أبعد منالا من أن يكونا قدوة نموذجية للإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية، بينما ظل وسيظل محمد صلى الله عليه وسلم المثل النموذجي الإنساني الكامل لكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه وأسرته وبيئته، ومن هنا يقول الله تعالى في كتابه الكريم ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ))الأحزاب21

الرابعة:

- إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهي تحكي لنا سيرة محمد الشاب الأمين المستقيم قبل أن يكرمه الله بالرسالة، كما تحكي لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته، كما تحكي لنا سيرته كرئيس دولة يضع لدولته أقوم النظم وأصحها، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقه بما يكفل لها النجاح، كما تحكي لنا سيرة الرسول الزوج والأب في حنو العاطفة، وحسن المعاملة، والتمييز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة والأولاد، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي المرشد الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم، ومن نفسه إلى نفوسهم، مما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها، كما تحكي لنا سيرة الرسول الصديق الذي يقوم بواجبات الصحبة، ويفي بالتزاماتها وآدابها، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم وأكثر من حبهم لأهليهم وأقربائهم، وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والجار الأمين، والمعاهد الصادق.

وقصارى القول :إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مربي، وكل سياسي، وكل رئيس دولة، وهكذا ..

ونحن لا نجد مثل هذا الشمول ولا قريبا منه فيما بقي لنا من سير الرسل السابقين، ومؤسسي الديانات والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين.

فموسى يمثل زعيم الأمة الذي أنقذ أمته من العبودية، ووضع لها من القواعد والمبادئ ما يصلح لها وحدها، ولكننا لا نجد في سيرته ما يجعله قدوة للمحاربين، أو المربين أو السياسيين، أو رؤساء الدول أو الآباء، أو الأزواج مثلا، وعيسى عليه السلام يمثل الداعية الزاهد الذي غادر الدنيا وهو لا يملك مالا، ولا دارا، ولا متاعا، ولكنه في سيرته الموجودة بين أيدي المسيحيين، لا يمثل القائد المحارب، ولا رئيس الدولة، ولا الأب، ولا الزوج -لأنه لم يتزوج -ولا المشرع، ولا غير ذلك مما تمثله سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .وقل مثل ذلك في بوذا، وكونفوشيوس، وأرسطو، وأفلاطون، ونابليون، وغيرهم من عظماء التاريخ، فإنهم لا يصلحون للقدوة -إن صلحوا -إلا لناحية واحدة من نواحي الحياة وبرزوا فيها واشتهروا بها، والإنسان الوحيد في التاريخ الذي يصلح أن يكون قدوة لجميع الفئات وجميع ذوي المواهب وجميع الناس هو محمد صلى الله عليه وسلم.

الخامسة:

- إن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وحدها تعطينا الدليل الذي لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته، إنها سيرة إنسان كامل سار بدعوته من نصر إلى نصر لا عن طريق الخوارق والمعجزات، بل عن طريق طبيعي بحت.

فلقد دعا فأوذي، وبلّغ فأصبح له الأنصار، واضطر إلى الحرب فحارب، وكان حكيما، موفقا في قيادته، فما أزفت ساعة وفاته إلا وكانت دعوته تلف الجزيرة العربية كلها عن طريق الإيمان، لا عن طريق القهر والغلبة، ومن عرف ما كان عليه العرب من عادات وعقائد وما قاوموا به دعوته من شتى أنواع المقاومة حتى تدبيراغتياله، ومن عرف عدم التكافؤ بينه وبين محاربيه في كل معركة انتصر فيها، ومن عرف قصر المدة التي استغرقتها رسالته حتى وفاته، وهي ثلاث وعشرون سنة، أيقن أن محمدا رسول الله حقا، وأن ما كان يمنحه الله من قوة وثبات وتأثير ونصر ليس إلا لأنه نبي حقا.

وما كان لله أن يؤيد من يكذب عليه هذا التأييد الفريد في التاريخ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبت لنا صدق رسالته عن طريق عقلي بحت، وما وقع له صلى الله عليه وسلم من المعجزات لم يكن الأساس الأول في إيمان العرب بدعوته، بل إنا لا نجد له معجزة آمن معها الكفار المعاندون، على أن المعجزات المادية تكون حجة على من شاهدها، ومن المؤكد أن المسلمين الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يشاهدوا معجزاته، إنما آمنوا بصدق رسالته للأدلة العقلية القاطعة على دعواه النبوة، ومن هذه الأدلة العقلية :القرآن الكريم، فإنه معجزة عقلية، تلزم كل عاقل منصف أن يصدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة.

مصادر السيرة النبوية:

تنحصر المصادر الرئيسية المعتمدة للسيرة النبوية في أربعة مصادر:

١- **القرآن الكريم:**

وهو مصدر أساسي نستمد منه ملامح السيرة النبوية، فقد تعرض القرآن الكريم لنشأته "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" كما تعرض لأخلاقه الكريمة العالية "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" وقد تحدث القرآن عما لقيه عليه الصلاة والسلام من أذى وعنت في سبيل دعوته، كما ذكر ما كان المشركون ينعتونه به من السحر والجنون صدًّا عن دين الله عز وجل، وقد تعرض القرآن لهجرة الرسول كما تعرض لأهم المعارك الحربية التي خاضها بعد هجرته، فتحدث عن معركة بدر، وأحد، والأحزاب، وصلح الحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، وتحدث عن بعض معجزاته، كمعجزة الإسراء والمعراج.

وبالجملة فقد تحدث عن كثير من وقائع سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما كان الكتاب الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض، وكان من الثبوت المتواتر بما لا يفكر إنسان عاقل في التشكيك بنصوصه وثبوتها التاريخي، فإن ما تعرض له من وقائع السيرة يعتبر أصح مصدر للسيرة على الإطلاق.

ولكن من الملاحظ أن القرآن لم يتعرض لتفاصيل الوقائع النبوية، وإنما تعرض لها إجمالا، فهو حين يتحدث عن معركة لا يتحدث عن أسبابها، ولا عن عدد المسلمين والمشركين فيها، ولا عن عدد القتلى والأسرى من المشركين، وإنما يتحدث عن دروس المعركة وما فيها من عبر وعظات، وهذا شأن القرآن في كل ما أورده من قصص عن الأنبياء السابقين والأمم الماضية، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نكتفي بنصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية لنخرج منها بصورة متكاملة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

المصدر الثاني:

السنة النبوية الصحيحة:

السنة النبوية الصحيحة التي تضمنتها كتب أئمة الحديث المعترف بصدقهم والثقة بهم في العالم الإسلامي هي:

الكتب الستة : صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه .ويضاف إليها :موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، فهذه الكتب وخاصة البخاري ومسلم في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق، أما الكتب الأخرى، فقد تضمنت الصحيح والحسن، وفي بعضها الضعيف أيضا.

من هذه الكتب التي حوت القسم الأكبر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ووقائعه وحروبه، وأعماله، نستطيع أن نكون فكرة شاملة -وإن كانت غير متكاملة أحيانا -عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومما يزيد الثقة بها والاطمئنان إليها أنها رويت بالسند المتصل إلى الصحابة رضوان الله عليهم، وهم الذين عاشروا الرسول ولازموه، ونصر الله بهم دينه، وقد رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، فكانوا أكمل أجيال التاريخ استقامة أخلاق وقوة إيمان، وصدق حديث، وسمو أرواح، وكمال عقول، فكل ما رووه لنا عن الرسول بالسند الصحيح المتصل يجب أن نقبله كحقيقة تاريخية لا يخالجنا الشك فيها.

المصدر الثالث:

الشعر العربي المعاصر لعهد الرسالة:

مما لا شك فيه أن المشركين قد هاجموا الرسول ودعوته على ألسنة شعرائهم، مما اضطر المسلمين إلى الرد عليهم على ألسنة شعرائهم، كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وغيرهما، وقد تضمنت كتب الأدب، وكتب السيرة التي صنفت فيما بعد قسطا كبيرا من هذه الأشعار التي نستطيع أن نستنتج منها حقائق كثيرة عن البيئة التي كان يعيش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي ترعرعت فيها عقيدة الإسلام أول قيامها.

المصدر الرابع:

كتب السيرة:

كانت وقائع السيرة النبوية روايات يرويها الصحابة رضوان الله عليهم إلى من بعدهم، وقد اختص بعضهم بتتبع دقائق السيرة وتفاصيلها، ثم تناقل التابعون هذه الأخبار ودونوها في صحائف عندهم، وقد اختص بعضهم بالعناية التامة بها، أمثال أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت١٠٥هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (ت٩٣هـ) ومن صغار التابعين عبد الله بن أبي بكر الأنصاري توفي سنة 135هـ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ت124 هـ الذي جمع السنة في عهد عمر بن عبد العزيز بأمره، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري توفي سنة 129هـ.

مغازي ابن إسحاق:

ثم انتقلت العناية بالسيرة إلى من بعدهم، حتى أفردوها بالتصنيف، ومن أشهر أوائل المصنفين في السيرة:

محمد بن إسحاق بن يسار توفي سنة 152هـ، وقد اتفق جمهور العلماء والمحدثين على توثيقه، ألف ابن إسحاق كتابه «المغازي» من أحاديث وروايات سمعها بنفسه في المدينة ومصر.

سيرة ابن هشام:

سيرة ابن هشام:

هو أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري، نشأ بالبصرة وتوفي سنة 213أو 218هـ على اختلاف الروايات، ألف ابن هشام كتابه«السيرة النبوية » مما رواه شيخه البكائي عن ابن إسحاق، ومما رواه هو شخصيا عن شيوخه، مما لم يذكره ابن إسحاق في سيرته، وأغفل ما رواه ابن إسحاق مما لم يتفق مع ذوقه العلمي وملكته النقدية، فجاء كتابا من أوفى مصادر السيرة النبوية، وأصحها، وأدقها، ولقي من القبول ما جعل الناس ينسبون كتابه إليه، فيقولون :سيرة ابن هشام.

وشرح كتابه هذا عالمان من الأندلس :السهيلي ت581 هـ والخشني ت604 هـ.

طبقات ابن سعد:

هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، ولد بالبصرة سنة 168هـ وتوفي ببغداد سنة 230هـ، كان كاتبا لمحمد بن عمر الواقدي المؤرخ الشهير في المغازي والسيرة ت207 هـ .

سار ابن سعد في كتابه »الطبقات «على ذكر أسماء الصحابة والتابعين - بعد ذكر سيرة الرسول عليه السلام - بحسب طبقاتهم، وقبائلهم، وأماكنهم، ويعتبر كتابه »الطبقات «من أوثق المصادر الأولى للسيرة، وأحفظها بذكر الصحابة والتابعين.

تاريخ الطبري:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت310 هـ، إمام، فقيه، محدث، صاحب مذهب في الفقه لم ينتشر كثيرا ألف كتابه في التاريخ غير مقتصر على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، بل ذكر تاريخ الأمم قبله، وأفرد قسما خاصا لسيرته عليه السلام، ثم تابع الحديث عن تاريخ الدول الإسلامية حتى قرب وفاته.

تطور التأليف في السيرة:

ثم تطور التأليف في السيرة، فأفردت بعض نواحيها بالتأليف خاصة، كـ «دلائل النبوة» للأصبهاني، و«الشمائل المحمدية» للترمذي، و «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية، و«الشفاء » للقاضي عياض، و «المواهب اللدنية » للقسطلاني وهي مشروحة في ثماني مجلدات بقلم الزرقاني المتوفى سنة 1122هـ.

هذا ولا يزال العلماء يؤلفون في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بأسلوب حديث يتقبله ذوق أبناء العصر، ومن أشهر الكتب المؤلفة في العصر الحديث:

- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري رحمه الله.
- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.
- فقه السيرة النبوية للشيخ محمد الغزالي.

السيرة النبوية

الأسلوب النبوي في التعامل مع غير المسلمين

أخلاق النبوة

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

أخلاقه صلى الله عليه وسلم هي النموذج والقدوة لكل مسلم

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ [الأحزاب: ٢١]

نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية

﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ ﴾ [الإسراء: ٧٠]

تحريم قتل النفس كل نفس إلا بحقها

- ﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ ﴾ [الأنعام: ١٥١]

"من قتل مُعاهَدا في غير كُنهه حرم الله عليه الجنة"

وَالْمُعَاهَدُ مَنْ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَهْدٌ وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ فِي الْحَدِيثِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ

(فِي غَيْرِ كُنْهِهِ) قَالَ فِي النِّهَايَةِ كُنْهُ الْأَمْرِ حَقِيقَتُهُ وَقِيلَ وَقْتُهُ وَقَدْرُهُ وَقِيلَ غَايَتُهُ يَعْنِي مَنْ قَتَلَهُ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ أَوْ غَايَةِ أَمْرِهِ الَّذِي يَجُوزُ فِيهِ قَتْلُه

عون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ٣١٣)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» صحيح البخاري ح٦٩١٤

تحريم الظلم على كل البشر

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا....

صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» سنن أبي داود (٣/ ١٧١)

احترام النفس البشرية أيًّا كانت

حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا» صحيح البخاري (٢/ ٨٥)

الإسلام يأمر بالعدل مع الأعداء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾ [المائدة: ٨]

الاختلاف بين الناس أمر حتمي

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ ﴾ [هود: ١١٨]

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾ [يونس: ٩٩]

وظيفة الرسول هي البشارة والنذارة وليست إكراه الناس

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾ [الإسراء: ١٠٥]

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩]

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]

المسلم منفتح على كل الناس في سبيل رسالته

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣]

من رحمته صلى الله عليه وسلم بغير المسلمين حرصه الشديد على هدايتهم

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ [الشعراء: ٣]

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ ﴾ [فاطر: ٨]

حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا» صحيح البخاري (٨/ ١٠٢ ح٦٤٨٣

الاعتراف بغير المسلمين

الإسلام يعترف بجميع الرسالات التي سبقته ويأمر أتباعه بالإيمان بها

- ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ ﴾ [النساء: ١٥٠]

- ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ [البقرة: ١٣٦]

تكريم القرآن للأنبياء والرسل السابقين:

- ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ ﴾ [القصص: ١٤]
- ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]
- ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣]
- ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ ﴾ [الأنعام: ٨٥]

تواضعه صلى الله عليه وسلم ونهيه عن التفضيل بين أنبياء الله مع كونه أفضلهم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا، كَرِهَهُ أَوْ لَمْ يَرْضَهُ قَالَ: لَا، وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ قَالَ فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَقَالَ: فُلَانٌ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: قَالَ - يَا رَسُولَ اللهِ - وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: " لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ" صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٣) (فيصعق) الصعق والصعقة الهلاك والموت ويقال منه صعق الإنسان وصعق وأنكر بعضهم الضم وصعقتهم الصاعقة وأصعقتهم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ " مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ "

صحيح البخاري ٤/ ١٨٦ح٣٥٣٥

المحاضرة الرابعة

تحذير

ممنوع اصطحاب الكلاب والعرب

لافتة على باب أحد المطاعم في أوروبا

مظاهر احترام غير المسلمين في السيرة النبوية

١- أسلوب الحوار مع غير المسلمين

جمال الحوار

ذكر ابن إسحاق: أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدا، قال يوما -وهو في نادي قريش، ورسول الله صلّى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده-: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، يكثرون ويزيدون.

فقالوا: بلى، يا أبا الوليد قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به عقلائهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «قل يا أبا الوليد أسمع»

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه- حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلّى الله عليه وسلم يستمع منه قال: «أو قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني» ، قال: أفعل،

- **فقال: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ فصلت**

- **ثم مضى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.**

- **فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم**

الأسلوب القرآني في الحوار

﴿ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۙ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦ ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦]

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾ [آل عمران: ٦٤]

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩]

مخالطة غير المسلمين ودعوتهم والصبر على أذاهم

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عِبَادٍ الدِّيلِيِّ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، يَقُولُ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا "

وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مزدحمون عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، يَقُولُ: " أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا " إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ وَضِيءَ الْوَجْهِ، ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، قُلْتُ: إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا، قَالَ: لَا وَاللهِ إِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْقِلُ (مسند أحمد ح١٦٠٢٣)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ قَالَ: وَشَكَوْهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ». قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: «كَلِمَةً وَاحِدَةً» قَالَ: " يَا عَمِّ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " فَقَالُوا: إِلَهًا وَاحِدًا مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ. قَالَ: فَنَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَاقٌ ٧ ﴾ [ص: ١-٧] (سنن الترمذي ح٣٢٣٢)

مدح المخالفين:

ثناؤه صلى الله عليه وسلم على خالد بن الوليد وهو مشرك:

فهذا الوليد بن الوليد يبعث إلى أخيه خالد برسالة يحثه فيها على الدخول في الإسلام ويذكر له تقدير النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه على هدايته؛ يقول فيها:

أما بعد؛ فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ قد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَتْ: لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وَفُتِنُوا ، وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ...

الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١٤/ ٣٣٣)

البروتوكول النبوي مع الرسل والزعماء

كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى مالك فارس: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ولما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مزق الله ملكه، (وقد كان كما قال).

وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين عندك جلدين، فليأتياني به.

فاختار باذان رجلين ممن عنده، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى.

فلما قدما المدينة، وقابلا النبي صلى الله عليه وسلم قال أحدهما:

إن شاهنشاه (يعني ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتنطلق معي، وقال قولا تهديديا،

فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم أن يلاقياه غدا.

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ المُلك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الوحي، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك:

فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك.

قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر. وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك.

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك، فلا تُهِجْهُ حتى يأتيك أمري.

وكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن.

الرحيق المختوم (ص: ٣٢٤)

العدل مع غير المسلمين

"ما أرى شريعة أدعى للإنصاف ، ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول:

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا} [المائدة: ٨]

د/نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول ص٢٦

العدل في الشريعة

وهو مبدأ أساسي ليس فيه استثناء ولا تهاون

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]

وقال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨]

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [الشورى: ١٣ - ١٥]

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» سنن أبي داود (ح٣٠٥٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» صحيح البخاري (ح١٤٩٦)

يقول أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

" اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ "

رواه أحمد مسنده (ح١٢٥٤٩) وحسنه الألباني

نماذج من عدله صلى الله عليه وسلم وإنصافه غير المسلمين

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ " صحيح البخاري (ح٦٠٢٤)

وفي رواية أخرى عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» صحيح البخاري (ح٦٠٣٠)

الحكم بالبينة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»، قَالَ: فَقَالَ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ»، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «احْلِفْ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم} [آل عمران: ٧٧]

صحيح البخاري (ح٢٦٦٦)

جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي كَانَتْ لِأَبِي، فَقَالَ الْكِنْدِيُّ: هِيَ أَرْضِي فِي يَدِي أَزْرَعُهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَضْرَمِيِّ: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَكَ يَمِينُهُ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الرَّجُلَ فَاجِرٌ لَا يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ: «لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ»، فَانْطَلَقَ لِيَحْلِفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَدْبَرَ: «أَمَا لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِهِ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا، لَيَلْقَيَنَّ اللهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ» صحيح مسلم (ح٢٢٣- ١٣٩)

ولا تزر وازرة وزر أخرى

قال ابن إسحاق: ولم يعلم- فيما يلغني- بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج- يقصد: نوى الخروج- إلا علي وأبو بكر وآله رضي الله عنهما. أما علي رضي الله عنه فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلّف حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

صحيح البخاري (٤/ ٩٩)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلاَنٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ

وكان معه بشر بن البراء بن معرور، أخذ منها أكلة، فأساغها، فمات منها ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل المرأة اليهودية التي أهدت الشاة المسمومة قصاصا ، ولم يقتل معها أحد من أهل خيبر.

راجع الرحيق المختوم (ص: ٣٤٥)

البر بغير المسلمين

البر بغير المسلمين مبدأ قرآني

{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٨ - ٩]

والمعنى: لم يمنعكم الله من الإكرام وحسن الصلة لغير المسلمين طالما أنهم لم يناصبوكم العداء ولم يسعوا في إيذائكم ولم يقاتلوكم بسبب دينكم لا سيما إن كانوا أقرباء وذوي رحم.

صلة ذي الرحم غير المسلم

عنْ أَسْمَاءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ ابْنِهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ؟-أي في عطائي- أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»

قالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ}

صحيح البخاري (ح٥٩٧٨)

عيادة المريض غير المسلم

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»

صحيح البخاري ح١٣٥٦

الهدية لغير المسلم

عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: رَأَى عُمَرُ حُلَّةَ سِيَرَاءَ تُبَاعُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْتَعْ هَذِهِ وَالبَسْهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَإِذَا جَاءَكَ الوُفُودُ. قَالَ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ» فَأُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا بِحُلَلٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ بِحُلَّةٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَلْبَسُهَا وَقَدْ قُلْتَ فِيهَا مَا قُلْتَ؟ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُعْطِكَهَا لِتَلْبَسَهَا، وَلَكِنْ تَبِيعُهَا أَوْ تَكْسُوهَا» فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ إِلَى أَخٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ

صحيح البخاري ح٥٩٨١ باب صلة الأخ المشرك

(حلة سيراء) وهي مضلعة بالحرير،، قالوا كأنها شبهت خطوطها بالسيور قال أهل اللغة الحلة لا تكون إلا ثوبين وتكون غالبا إزارا ورداء

(من لا خلاق له) معناه من لا نصيب له في الآخرة وقيل من لا حرمه له وقيل من لا دين له]

عفو النبي صلى الله عليه وسلم عم آذاه من المشركين

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي العِضَاهِ، يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ سَمُرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ. قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَا فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ " ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(قبل نجد) ناحيتها وهي ما بين الحجاز إلى الشام ومنها المدينة والطائف. (قفل) رجع. (القائلة) النوم وقت الظهيرة. (العضاه) شجر عظيم له شوك. (سمرة) شجرة. (أعرابي) هو غورث بن الحارث. (اخترط) سلّ

صحيح البخاري (ح٤١٣٥)

عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَتْهُ، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ "، قَالَ: " فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ "، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»

صحيح مسلم ح١٧٩٥

الفصل السادس:

الرسول ﷺ والبرُّ مع زعماء الأعداء

في الفصل السابق مر بنا كيف تعامل رسول الله ﷺ بالبر مع غير المسلمين، فذكرنا إحسانه وكرمه في تعامله معهم بكل طوائفهم، بل ذكرنا كيف تعامل بالبر مع المدن والشعوب التي آذته كثيرًا، كأهل مكة وأهل الطائف، وهو ما يكاد أن يكون نادرًا تمامًا في تاريخ أيِّ أمة من أمم الأرض.

وإذا كانت الصور السابقة من صور التعامل نادرة، فإن الصورة التي سنتناولها في هذا المبحث تكاد تكون مستحيلة!!

إننا سنتناول في هذا الفصل بِرَّهُ ﷺ مع زعماء الأعداء الذين قاوموه وحاربوه سنواتٍ عديدة.. سنتناول بِرَّهُ مع أولئك الذي جَيَّشُوا الجيوش، وحزَّبُوا الأحزاب؛ لاستئصال شأفة المسلمين..

سنتناول بِرَّهُ مع أولئك الذين لم يكتفوا بالسخرية منه والكيد له، بل حفَّزوا الآخرين على فعل ذلك، وكانوا في فترة من فترات حياتهم أكابر المجرمين، وقادة الضالين.

بل إننا سنتناول بره مع أولئك الذين دبَّروا المحاولات تلو المحاولات لقتله هو شخصيًّا، فما ترك ذلك في قلبه حقدًا، وما أورث غِلاًّ، وما غيَّر من أخلاقه المعهودة، ولا من طبيعته الرقيقة ﷺ.

وسينقسم هذا الفصل إلى المبحثين التاليين:

المبحث الأول: بِرُّهُ ﷺ مع زعماء مكة

المبحث الثاني: برُّه ﷺ مع زعماء القبائل الأخرى

المبحث الأول

برُّه ﷺ مع زعماء مكة

سنقف في هذا المبحث أمام برِّه ﷺ مع أبرز زعماء مكة الذين ناصَبُوهُ ﷺ عداءً مريرًا طويلاً، وذلك من خلال ما يلي:

برُّه ﷺ مع أبي سفيان:

لم يكن أبو سفيان رجلاً عاديًّا من رجال قريش، لكنه كان من الرجال المعدودين الذين يُشار إليهم بالحكمة وحسن القيادة، ولم يكن رجلاً محايدًا عندما ظهرت دعوة رسول الله ﷺ، إنما كان مهاجمًا لها، محاولاً بكل الطرق أن يُوقِفَ مَدَّها، وأن يُجهِض نموها.

لقد كان أبو سفيان من الذين اجتهدوا طيلة فترة الدعوة في مكة أن يقتلوا الإسلام في مهده، وقد ذكره الطبري فيمن اجتمعوا في دار الندوة يخططون لقتل رسول الله ﷺ قبيل هجرته إلى المدينة المنورة[1].

وفي فترة المدينة المنورة كان أبو سفيان على رأس المشركين في أول

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٦٦.

مواجهة بين سريةٍ مُسلمةٍ[١] بقيادة عبيدة بن الحارث[٢] ﷺ، وتَجَمُّعٍ للمشركين عند منطقة ثنية المُرَّة[٣]، وكان أبو سفيان على رأس القافلة التي نجتْ، وأعقبها مباشرة الصدام الكبير مع المشركين في بدر.

وفي بدر قُتل سبعون من صناديد وقادة قريش، ومن ثَمَّ اجتمعت قريش على رئاسة أبي سفيان لها بكل بطونها وفروعها، وهو حدث فريد في تاريخ مكة، ومن هذه اللحظة وأبو سفيان هو المحرِّك الأول لجموع قريش والقبائل العربية الأخرى لحرب المسلمين.

وكان ابنه «حنظلة» قد قُتِلَ في بدر، وابنه الآخر «عمرو» قد أُسِر[٤]، فزاد ذلك في أضغانه وأحقاده، واستطاع أبو سفيان -بنفسه- أن يأسِر صحابيًّا جليلاً وهو سعد بن النعمان بن أكال، فبادله بابنه عمرو بن أبي سفيان.

ثم أقسم أبو سفيان ألا يَمَسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يغزو محمدًا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٣٦. يذكر ابن إسحاق أن هذه كانت أول سرية مسلمة، بينما يذكر آخرون أن أول سرية كانت لحمزة بن عبد المطلب.

(٢) عبيدة بن الحارث: هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي، كان أَسَنَّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكانت هجرته إلى المدينة مع أخويه، وكان له قدْر ومنزلة عند رسول الله ﷺ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٤١، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٤٤٨، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٣٧٩).

(٣) ثنية المُرَّة: بتشديد الراء أو بتخفيفها، موضع معروف بين غدير خم والفرع على طريق الهجرة. انظر: محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص ٢٥٠.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٣٢.

ﷺ، وبالفعل جمع مائتي فارس وغزا المدينة في الظلام، وقتل رجلين من الأنصار[١]، فيما عُرِف في التاريخ بغزوة السويق[٢].

ثم كان يوم «أُحُد»، وخرج أبو سفيان يقود ثلاثة آلاف مشرك لحرب المسلمين، وكانت من أكبر الأزمات التي مرت بالمسلمين؛ فبعد الانتصار في أول المعركة تحوَّل النصر إلى مصيبة، وصارت الدولة للمشركين، واستشهد من المسلمين سبعون، وقَتَل أبو سفيان يومها[٣] سلمةَ بن ثابت[٤] ﷺ، وقيل: إنه هو الذي قَتَل حنظلة غَسِيل الملائكة[٥] وقال: حنظلة بحنظلة، أي أن هذا الصحابي بابنه الذي قُتِلَ في بدر[٦].

لكن أشدَّ ذلك ما ظهر منه في شعورٍ بالشماتة، وما بدا منه من مخالفةٍ لأعراف الحرب، وآداب القتال عند العرب.. وذلك في الحوار الذي دار

---

(١) الرجلان هما: معبد بن عمرو وحليف له لم أقف على اسمه، وذكر ابن إسحاق القصة إلا أنه لم يسمِّهما.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٥٤٠.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٤٦٦.

(٤) سلمة بن ثابت: هو سلمة بن ثابت بن وقش الأنصاري الأشهلي، شهد بدرًا وقتل يوم أحد شهيدًا هو وأخوه عمرو بن ثابت، قتله أبو سفيان بن حرب. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٠٠، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٢٩١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٣٣٦٢).

(٥) هو حنظلة بن أبي عامر، وقد خرج إلى الغزوة صبيحة عُرسه، وكان جنبًا، فأعجله الخروج عن الغُسل، فغسَّلته الملائكة! وقيل: قتله شداد بن الأسود بن شعوب الليثي وليس أبا سفيان. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٤٣٢، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٦٢١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٨٥٨).

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٨.

بينه وبين المسلمين بعد غزوة أحد مباشرة..

يروي البخاري وغيره أن أبا سفيان نادى بعد انتهاء المعركة يوم أُحُد: «أفي القوم محمد؟! ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟! ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟! ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتِلوا. فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت -والله- يا عدو الله! إن الذين عددت أحياء كلَّهم، وقد بَقِيَ لك ما يسوءُك.

قال: يومٌ بيومِ بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها، ولم تسُؤْنِي، ثم أخذ يرتجز: أُعْلُ هُبَلْ..!! أُعْلُ هُبَلْ..!!

قال النبي ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُونَهُ؟!» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ».

قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم!!

فقال النبي ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُونَهُ؟!» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ»[1].

ففي هذا الحوار يُظهِر أبو سفيان الرضا بما حدث في الشهداء من تشويهٍ للأجساد، وتقطيعٍ للآذان، وبقرٍ للبطون! وهو ما لم تألفه العرب أصلاً في جاهلية ولا في إسلام، وإنما يدل كل ذلك على شهوة إبادة حقيقية،

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٣٨١٧)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والنسائي (٨٦٣٥).

وعلى رغبةٍ أكيدةٍ في الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين.

وظهرت هذه الشهوة أيضًا عندما حضر أبو سفيان وشهد حادثة قتل زيد ابن الدثنة[١] ﷺ، في إقرارٍ واضحٍ لمبدأ الغدر في التعامل مع المسلمين[٢].

وقد ظهرت هذه الشهوة بصورة أكبر في حصار الأحزاب في العام الخامس من الهجرة، وفي هذا الحصار حرص أبو سفيان -الذي كان على قيادة عشرة آلاف مشرك- والمشركون معه على التخلّص من كلِّ المسلمين بالمدينة المنورة..

لقد كانت جريمة كبرى عندما جمعوا الجموع؛ ليحاصروا المدينة الآمنة، ولِيُرَوِّعُوا الرجال والنساء والأطفال!!

وظلَّ أبو سفيان زعيمًا لمكة حتى السنة الثامنة من الهجرة، وكان صلح الحديبية قد تمَّ منذ سنتين، وانضمت فيه قبيلة بني بكر لحلف المشركين، بينما انضمت قبيلة خزاعة لحلف المسلمين، ثم حدثت الخيانة المعروفة من بني بكر، وقتلت عددًا من قبيلة خزاعة، وساعدتها قريش على ذلك[٣]، فنُقِضَ بذلك صلح الحديبية.. ومن ثَمَّ قرر رسول الله ﷺ فتح مكة بجيش

---

(١) زيد ابن االدثنة: هو زيد ابن الدثنة بن بياضة الأنصاري البياضي، شهد بدرًا وأحدًا، وأُسر يوم الرجيع مع خُبيب بن عدي، فبيع بمكة لصفوان بن أمية فقتله، وذلك في سنة أربع من الهجرة. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ١٢٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٢١/ ١٤٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٢٩٠٠).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٥٤.

قوامه عشرة آلاف مؤمن.

إنها قصة طويلة، وتفصيلاتها كثيرة، وما يهمنا فيها أن أبا سفيان كان يتولَّى كِبْر الأمر في حرب المسلمين، وكان على رأس المهدِّدين لأمن الدولة الإسلامية.

ضعْ كل هذه الخلفيات المعقَّدة في ذهنك، وأنت تحلِّل الطريقة التي تعامل بها رسول الله ﷺ مع أبي سفيان عندما قابله في الطريق من المدينة إلى مكَّة أثناء التوجه لفتح مكة المكرمة.

إننا ذكرنا هذا التاريخ الطويل من العداء لنفقه قيمة الخُلُق النبوي، وعظمة الرؤية الإسلامية للأمور..

لقد دارت الأيام، وأصبح أبو سفيان في موقف ضعيف جدًّا، ووجد نفسه عاجزًا عن الحركة، بل عن التفكير، وذلك عندما بُوغِتَ بالجيوش الإسلامية على بعد عدة كيلو مترات من مكة، وعلم أبو سفيان -يقينًا- أنه على رأس قائمة المطلوبين!!

فقد كان حريصًا في أكثر من مرة على استهداف المسلمين، ورسولهم ﷺ وأصابت أبا سفيان حالة من الرعب والهلع، ووجد أمامه أحد أصدقائه القدامى الذين آمنوا وانضموا إلى الصف المسلم وهو العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم رسول الله ﷺ فاستغاثه واستنجد به قائلاً: ما الحيلة؟ فداك أبي وأمي!

ونترك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يروي لنا ذلك الموقف حكاية عن أبيه،

وما حدث بعد ذلك بين رسول الله ﷺ وأبي سفيان زعيم مكة:

قال العباس رضي الله عنه يخاطب أبا سفيان: والله لئن ظَفِرَ بك لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ..!!

وهذا هو التصرف الطبيعي في تصور العباس رضي الله عنه، وفي تصور أي مُطَّلِعٍ أو محللٍ يراجع تاريخ أبي سفيان مع المسلمين.

ولكن العباس رضي الله عنه لصداقته القديمة مع أبي سفيان أو لرغبته الأكيدة في حفظ دماء قريش، قرَّر أن يشفع لأبي سفيان عند رسول الله ﷺ، فقال رضي الله عنه لأبي سفيان: «اركب معي هذه البغلة؛ حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك». فركب أبو سفيان مع العباس رضي الله عنه..

يقول العباس: فخرجت به، فكلما مررتُ بنار من نيران المسلمين فقالوا: ما هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: والله عدوُّ الله!! الحمد لله الذي أمكن منك. فخرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ودخل، وركضت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر فقال: هذا عدو الله أبو سفيان، قد أمكن الله منه في غير عهد ولا عقد؛ فدعني أضرب عنقه!!

فقلتُ (أي العباس): قد أجرته يا رسول الله. ثم جلستُ إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني. فلما أكثر عمر

قلتُ: مهلاً يا عمر! فوالله لو كان رجلاً من بني عديٍّ ما قلتَ هذا، ولكنه من بني عبد مناف.

فقال: مهلاً يا عباس، لا تقل هذا؛ فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم؛ وذلك أني قد عرفت أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: «اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِك، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ».

فذهبت به إلى الرحل فبات عندي، فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك!! لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئًا بعدُ.

فقال: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك! أما هذا -والله- فكان في النفس منها حتى الآن شيء.

قال العباس: فقلت: ويحك! أسلمْ واشهدْ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك.

قال: فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

قال العباس: فقلتُ: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا.

فقال: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ».

فلما انصرف إلى مكة ليُخْبِرَهُمْ، قال رسول الله ﷺ: «احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ [١]؛ حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ الله».

فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ، فمرت القبائل على ركابها، فكلما مرت قبيلة، قال: من هذه؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: ما لي ولبني سليم؟! ثم تمرُّ أخرى، فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: ما لي ولمزينة؟!

فلم يزل يقول ذلك حتى مرَّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء[٢] فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَق[٣]، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل[٤]!! والله لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيمًا!!

فقلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنَعَمْ إذًا. فقلت: النَّجَاء إلى قومك!

فخرج حتى أتاهم بمكة، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش،

---

(١) حطم الخيل: أي ازدحامها. وفي رواية: خطم الجبل: أي أنفه.

(٢) الكتيبة الخضراء: ما غلب عليها لبس الحديد، وشُبِّهَ سوادُه بالخُضرة. والعرب تُطلق الخضرة على السواد.

(٣) العيون.

(٤) قِبَل: طاقة ومقدرة.

هذا محمد قد أتاكم بما لا قِبَل لكم به! فقامت امرأته هند بنت عتبة، وأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس[١]؛ فبئس طليعة قوم!

فقال أبو سفيان: ويحكم!! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه من أنفسكم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقالوا: ويحك! ما تغني عنا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد»[٢].

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ في هذا الموقف مثلاً من أروع أمثلة المروءة والشهامة، وكذلك من أروع أمثلة التجرُّد لله والحرص على الدعوة.

لقد وقف ﷺ يتحاور مع أبي سفيان بطريقة إقناعية فيها البحث عن الحجة والدليل، مع أن السيف كان الحلَّ الأمثل عند عامة القواد والزعماء.

وقد أجاب أبو سفيان إجابة غير شافية لا تدل عن قناعة كاملة بتوحيد الله، ولكنه على كل حال لم يرفض، لكن عندما سأله رسول الله ﷺ عن إيمانه بنبوُّته صرَّح أبو سفيان أنه ما زال يشك في هذا الأمر!!

---

(١) الدسم الأحمس: الأسود الدنيء.

(٢) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٤٢، وانظر المطالب العالية (٤٣٦٢)، وقال ابن حجر: هذا حديث صحيح. وأخرجه البخاري من مرسل عروة في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٤٠٣٠)، وابن سعد في الطبقات ٢/ ١٣٤، ١٣٥، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٣٣-٣٥، وفيه مراجعة أبي سفيان لبديل بن ورقاء في كثرة النيران، والقبض على أبي سفيان، وورود الكتائب عليه. وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٩٩-٤٠٥.

وهنا هدَّده العباس ﷺ بأن قتله أصبح وشيكًا، ولا يحفظ دمه إلا الإسلام، فأسلم عندئذ أبو سفيان.

إن الذي فعله العباس ﷺ ليس إكراهًا في الدين، بل هو رحمة بأبي سفيان، ورحمة بكل قريش، إن قتل أبي سفيان في هذا الموقف لا يستنكره أحد، ولا ترفضه أعراف الدول لا في القديم ولا في الحديث؛ فهو يُصَنَّفُ في القانون الدولي الحديث على أنه مجرم حرب؛ لأنه دبَّر منذ سنتين محاولة «قتل جماعي» لأهل المدينة المنورة، ونَقَضَ منذ أيامٍ قليلةٍ عهدًا بينه وبين المسلمين راحَ ضحيَّة نقْضِهِ عددٌ من الرجال والنساء قتلى.

بل إن الذي يمكن أن يتوقعه أي متابع للأحداث أن يرفض رسول الله ﷺ إسلام أبي سفيان في هذا الموقف، ويظنَّ -ظنًّا أشبه باليقين- أنه ما فعل ذلك إلا تَقِيَّةً، وخوفًا من القتل.

لكن الرسول ﷺ لم يُظهِر شكًّا في إيمان أبي سفيان، بل قَبِل منه ببساطة، ولم يناقشه أو يستوثق منه، بل عفا عنه في لحظة واحدة!!

لقد تناسى رسول الله ﷺ في لحظة واحدة كل الذكريات المؤلمة، والجراح العميقة؛ فقلبه ﷺ لا تغزوه الأحقاد، ولا سبيل للشيطان عليه.

ولو انتهت القصة عند هذا الحدِّ لكانت آية من آيات العفو والتسامح، لكن الذي حدث بعد ذلك يتسامى ويرتفع فوق درجة الأخلاق التي نعرفها، فلا يمكن أن يُفَسَّرَ إلا بأنه ﷺ نبيٌّ كريم..

لقد أعطى رسول الله ﷺ لأبي سفيان في هذا الموقف ما يكفل له الفخر

أبد الدهر!! إنه ﷺ لم يكتفِ بإعطاء الأمان لأبي سفيان، بل أعطى الأمان لكل من يدخل دار أبي سفيان!

«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»!

أيُّ عظمة..!! وأيُّ فضل..!!

إننا لا يمكن أن نتصور مدى النُّبل الذي في هذا الموقف إلا أن نضع أنفسنا في الموقف ذاته، ولنكن صادقين مع أنفسنا، وليكن العالم صادقًا مع نفسه.. هل يفعل ذلك أحد غير رسول الله ﷺ؟!

أما زال هناك من يدَّعِي أن المسلمين لا يعترفون بغيرهم، ولا يحسنون التعامل معهم؟!!

أما زال الإسلام دين إرهاب وعنف في رأي البعض؟!

إننا نفتقر فقط إلى العلم.. إننا لا نعرف من حياة رسول الله ﷺ إلا قشورًا سطحية، ولو تعمَّقنا في دراسة سيرته، ونقلناها لعموم أهل الأرض، لزالت الغشاوة عن أبصار قوم لا يعلمون.

وما حدث مع أبي سفيان ﷺ ليس موقفًا فرديًّا في السيرة، بل رأيناه مع كثيرٍ من محرِّكي الجموع، ومهيِّجي الشعوب..

وموقفه ﷺ مع عكرمة بن أبي جهل موقفٌ لا يُنْسَى أيضًا.

برُّه ﷺ مع عكرمة بن أبي جهل:

كان عكرمة من أشد أعداء رسول الله ﷺ ضراوةً في تاريخ السيرة

كلها، وقد شرب العداوة جُلَّ هذه المدة الطويلة من أبيه فرعون هذه الأمة وألدِّ أعداء الإسلام «أبي جهل»، ولكن عكرمة استمر وزاد في العداوة للدرجة التي جعلت الرسول ﷺ يُريق دمه عند فتح مكة باعتباره من مجرمي الحرب آنذاك.

كان عكرمة من القليل الذي قاتل في الخندمة[١] ضد خالد بن الوليد ﷺ، ولكنه بعد هزيمته فرَّ من مكة المكرمة وحاول أن يصل في فراره إلى اليمن، وذهب بالفعل إلى البحر ليأخذ سفينة وينطلق بها إلى اليمن[٢].

إن طريقه في الكفر طويل، وهو مطلوب الدم، وإذا وجده الرسول ﷺ سيقتله بلا جدال.

وقد أرادت زوجة عكرمة «أم حكيم بنت الحارث بن هشام»[٣] أن تنقذ زوجها، فذهبت -بعد أن أسلمت- إلى الرسول ﷺ لتشفع عنده لعكرمة بن أبي جهل في أن يعود إلى مكة المكرمة آمنًا، وقالت: «قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنْهُ».

فردَّ الرسول ﷺ في يسر وسهولة: « هُوَ آمِنٌ»[٤]!!

---

(١) الخندمة: اسم موضع بناحية مكة، قال ابن الأثير: هو جبل معروف عند مكة. وقال ابن بري: كانت به وقعة يوم فتح مكة. انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط ص١٤٢٧، وابن الأثير: النهاية في غريب الأثر ٢/ ١٦١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٦٠.

(٣) هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام، ابنة عم عكرمة، أسلمت يوم الفتح، واستأمنت النبيَّ ﷺ لزوجها عكرمة، وخرجت في طلبه فردته حتى أسلم وثبتا على نكاحهما. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٣٢٩، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١١٩٧٣).

(٤) رواه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني (٦٠١).

لم يذكر لها ﷺ أنه مهدر الدم، ولم يذكِّرها بتاريخه الطويل، ولم يقُلْ لها: أنتِ حديثة الإسلام جدًّا، فكيف تشفعين لغيرك؟!

لم يقل لها أيًّا من ذلك، ولم يشترط عليه أو عليها شروطًا، وإنما قال: «هُوَ آمِنٌ»!

وخرجت أم حكيم الزوجة الوفية تبحث عن زوجها، وذهبت حتى وصلت في رحلة طويلة إلى عكرمة وهو يحاول أن يركب سفينة في ساحل البحر الأحمر متجهًا إلى اليمن، فقالت له: «يا ابن عم، قد جئتك من عند أَوْصَلِ الناس، وأبرِّ الناس، وخيرِ الناس.. لا تُهلِك نفسك، إني استأمنت لك محمدًا ﷺ».

فقال لها: أنتِ فعلتِ هذا؟!

قالت: نعم[1].

وعكرمة بن أبي جهل في ذلك الوقت يرى الدنيا كلها قد ضُيِّقَتْ عليه، فأين يذهب؟ إنه يريد أن يذهب الآن إلى اليمن، واليمن بكاملها مسلمة، وبقاع الأرض تتناقص من حوله، والجميع الآن يدخلون في دين محمد ﷺ وحِلفه، فأخذ عكرمة قرارًا سريعًا بالعودة معها دون تفكير طويل.

وعاد عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، وقبل أن يدخلها إذا

---

(١) انظر: الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٦٩.

برسول الله ﷺ يقول لأصحابه كلمات جميلة..

قال: «يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا، فَلا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ»[1].

فأيُّ أخلاق كريمة كانت عند رسول الله ﷺ هذه؟!!

لقد كان أبو جهل فرعون هذه الأمة، ومع ذلك فالرسول ﷺ يأمر الصحابة ﷺ بألاَّ يلعنوا أبا جهل أمام ابنه عكرمة؛ لكي لا يؤذوا مشاعره، مع أن عكرمة لم يُسلِم حتى هذه اللحظة.

ودخل عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، ومن بعيد رآه الرسول ﷺ فماذا فعل..؟!

هل تذكَّرَ أبا جهل؟!

هل استعاد بذاكرته الغزوات التي شارك فيها عكرمة صادًّا عن سبيل الله؟!

هل فكر في قتال عكرمة للمسلمين منذ أيام عند الخندمة؟!

هل نظر إلى حالة الضعف والهوان الشديد التي جاء بها عكرمة، فأراد أن يُلَقِّنَهُ درسًا يعرف به قوة الدولة الإسلامية؟!

إنه ﷺ لم يفعل أيًّا من هذا الذي يتوقعه أي سياسي!!

---

(١) رواه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن (٦٠١)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٦٩، وضعفه الذهبي.

لقد وثب رسول الله ﷺ إلى عكرمة وما عليه رداء فرحًا به[١]، وانبسطت أساريره وهو يرى عكرمة بن أبي جهل يعود إليه، مع أنه لم يسلم بعدُ، لكن هذه هي طبيعة رسول الله ﷺ دون تكلُّف..

وجلس عكرمة بين يدي رسول الله ﷺ، وقال: يا محمد، إن هذه (وأشار إلى زوجته) أخبرتني بأنك أمَّنتني..!!

فقال الرسول ﷺ دون تفصيلات ولا شروط: «صَدَقَتْ، فَأَنْتَ آمِنٌ».

فقال عكرمة: إلامَ تدعو يا محمد؟

فقال له: «أَدْعُوكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلاةَ، وَأَنْ تُؤْتِيَ الزَّكَاةَ» وتفعل، وتفعل... وأخذ يعدِّد عليه أمور الإسلام، حتى عدَّدَ له كل الخصال الحميدة.

فقال عكرمة: ما دعوتَ إلا إلى الحق وأمر حسن جميل!!

والقلوب بين أصابع الرحمن يقلِّبُهَا كيف يشاء، ففي هذه اللحظات فقط شعر عكرمة بن أبي جهل ﷺ أن كل ما ذكره النبي ﷺ كان حقًّا، وأن كل ما تحدَّثَ عنه قبل ذلك أيام مكة وبعد مكة كان صدقًا، وكان من كلام النبوة والوحي..!!

وهنا قال عكرمة بن أبي جهل: قد كنتَ -والله- فينا تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقُنا حديثًا، وأَبرُّنَا بِرًّا، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله.

---

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٦٩.

وفي لحظة واحدة انتقل عكرمة من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان!!

ثم قال عكرمة: يا رسول الله، علمني خير شيء.

فقال الرسول ﷺ «تَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

فقال عكرمة: ثم ماذا؟

قال: «أَنْ تَقُولَ: أُشْهِدُ اللهَ، وَأُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي مُسْلِمٌ وَمُهَاجِرٌ وَمُجَاهِدٌ».

فقال عكرمة هذه الكلمات..

فقال الرسول ﷺ وهو يعرف أن عكرمة ما زال حديث عهد بالإسلام، ويحاول قدر المستطاع أن يقرِّبه إلى الدين: «لا تَسْأَلُنِي الْيَوْمَ شَيْئًا أُعْطِيهِ أَحَدًا إِلاَّ أَعْطَيْتُهُ لَكَ».

فلم يطلب عكرمة بن أبي جهل مالاً، أو سلطانًا، أو إمارة، وإنما طلب المغفرة فقال: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتُكَهَا، أو مسيرٍ أوضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه.

فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُرِيدُ فِي هَذَا الْمَسِيرِ إِطْفَاءَ نُورِكَ، فَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنِّي مِنْ عِرْضٍ فِي وَجْهِي، أَوْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ».

فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله.

ثم قال صادقًا: لا أدع نفقةً كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله[١].

ووهب عكرمة حياته للجهاد في سبيل الله، سواءٌ في حروب الردة أو في فتوح الشام، حتى قُتِلَ شهيدًا ﷺ في اليرموك.

ولننظر كيف بدَّل الله ﷻ حياته كاملة بحسن استقبال الرسول ﷺ له، وبتأمينه إياه، وبغفرانه له كل التاريخ الأسود الذي كان له مع المسلمين، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[٢]. وفي رواية: «خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[٣].

وكما فعل رسول الله ﷺ مع أبي سفيان وعكرمة ﷺ فعل مع كثيرٍ غيرهما، وكان موقفه مع صفوان بن أمية من أروع مواقف التاريخ قاطبة.

برُّه ﷺ مع صفوان بن أمية:

لم يكن صفوان بن أميَّة بن خلف يختلف كثيرًا عن عكرمة بن أبي جهل ﷺ؛ فقد كان أبوه من أشد المعاندين للرسول ﷺ ومن الذين قُتِلُوا في بدر، وورث صفوان بن أمية هذه الكراهية من أبيه للإسلام والمسلمين، وحارب الرسول ﷺ بكل طاقته، وكان ممن التفَّ حول ظهر المسلمين في

---

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٧٠.

(٢) البخاري عن سهل بن سعد: كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٤٩٨)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي رافع (٦٥٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٩٣٠).

أُحد هو وخالد بن الوليد، واشترك اشتراكًا كبيرًا في قتل سبعين من شهداء الصحابة ﷺ، واشترك أيضًا في غزوة الأحزاب، وكان من الذين شاركوا في عملية القتال في داخل مكة المكرمة.

بل إن صفوان بن أمية كان قد دبَّر محاولة لقتل الرسول ﷺ، وكانت هذه المحاولة بينه وبين ابن عمه عمير بن وهب، وكان وقتها لا يزال كافرًا.. وفيها تعهَّد صفوانُ بن أمية لعمير بن وهب أن يتحمل عنه نفقات عياله، وأن يسدِّد عنه دَيْنه، في نظير أن يقتل عميرٌ رسول الله ﷺ..!!

غير أن المحاولة فشلت، وذلك عندما أسلم عمير بن وهب[1] ﷺ في المدينة المنورة بعد أن أخبره الرسول ﷺ بما دار بينه وبين صفوان في حجر الكعبة!!

ومرَّت الأيام، وجاء فتح مكة، وفرَّ صفوان بن أمية، ولم يجد له مكانًا في مكة المكرمة، وعلم أنه لن يُسْتَقْبَلَ في أي مكان في الجزيرة العربية؛ فقد أصبح الإسلام في كل مكان، فقرَّر أن يُلقِي بنفسه في البحر ليموت، فخرج صفوان في اتجاه البحر الأحمر ومعه غلام اسمه يسار[2]، وليس معه أحد غيره حتى وصل إلى البحر الأحمر، وهو في أشد حالات الهزيمة النفسية،

---

(١) هو عمير بن وهب الجمحي القرشي، شهد بدرًا مع المشركين، وحاول قتل النبي ﷺ إلا أنه أسلم وحسُن إسلامه، وعاش إلى خلافة عمر. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٢٩٤، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٧٩٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٦٠٥٨).

(٢) هو أبو فكيهة يسار ﷺ مولى صفوان بن أمية، قال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس يجلس إليه المستضعفون من أصحابه: حباب وعمار وأبو فكيهة يسار. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٣٨٤)، وابن الأثير: أسد الغابة ٥/ ٢٤٩.

ورأى صفوان من بعيد أحد الرجال يتتبعه، فخاف، وقال لغلامه: ويحك! انظر من ترى؟

قال الغلام: هذا عمير بن وهب.

فقال صفوان: وماذا أصنع بعمير..؟! والله ما جاء إلا يريد قتلي، فهو قد دخل في الإسلام، وقد ظاهر محمدًا عليَّ.

ولحق عمير بن وهب ﷺ بصفوان بن أمية، فقال له صفوان: يا عمير، ما كفاك ما صنعتَ بي! حمَّلتني دَيْنَك وعيالَكَ، ثم جئتَ تريد قتلي.

فقال: أبا وهب، جُعِلْتُ فِدَاكَ..! قد جِئتُكَ من عِنْدِ أَبَرِّ الناس، وأوصل الناس.

لقد رأى عمير بن وهب ابن عمه وصديقه القديم صفوان يهرب من مكة فَرَقًّ له، وأشفق عليه، فأسرع إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، سيِّد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألاَّ تُؤَمِّنَهُ، فداك أبي وأمي.

فقال الرسول ﷺ: «قَدْ أَمَّنْتُهُ»!!

هكذا!!

وتمامًا مثلما ﷺ فعل مع قرينه «عكرمة».

إنها ليست أبدًا مواقف عابرة، إنه -باختصار- منهج حياة..!

قال عمير بن وهب لصفوان: إن رسول الله قد أَمَّنَكَ.

فخاف صفوان، وقال: لا -والله- لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامةٍ أعرفها.

فرجع عمير بن وهب إلى الرسول ﷺ، وقد بذل مجهودًا كبيرًا في السعي من البحر الأحمر إلى مكة، وهي مسافة تقرب من ثمانين كيلو مترًا ذهابًا فقط!

قال عمير لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، جئتُ صفوانَ هاربًا يريد أن يَقْتُلَ نفسه، فأخبرته بما أَمَّنْتَهُ، فقال: لا أرجع حتى تأتيني بعلامة أعرفها.

فقال الرسول ﷺ في منتهى التسامح: «خُذْ عِمَامَتِي إِلَيْهِ»!!

فأخذ عمير العمامة، وذهب إلى صفوان بن أمية، حتى وصل إليه، وأظهر له العمامة وقال له: يا أبا وهب، جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبرِّ الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعِزُّه عزك، ومُلْكُهُ مُلْكُكَ، ابنُ أمِّك وأبيك، أُذكِّرك اللهَ في نفسك.

فقال له صفوان في منتهى الضعف: أخافُ أن أُقتل!

قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سَيَّرك شهرين!!

ولننظر إلى هذا العرض السخي من رسول الله ﷺ، فلو أسلم صفوان لانتهت القضية، وأصبح له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، وإن أراد أن يأخذ شهرين كاملين يفكر فيهما، فهو في أمان!

فرجع صفوان بن أمية مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ، ودخل الحرم، والرسول ﷺ يصلي بالناس صلاة العصر فوقفا معًا، حتى ينتهي الرسول ﷺ من الصلاة، فقال صفوان لعمير بن وهب: كم تُصلون في اليوم والليلة؟

قال: خمس صلوات.

قال: يصلي بهم محمد؟

قال: نعم.

فلما سلم الرسول ﷺ وانتهى من صلاته، صاح صفوان يخاطب النبي ﷺ من بعيد: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني بعمامتك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سَيَّرْتَنِي شهرين.

فقال ﷺ في رفق وسهولة: «انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ». (وانظر إليه يُكَنِّيهِ ويَتَلَطَّفُ إليه!).

فقال صفوان في خوف: لا -والله- حتى تُبيِّن لي!!

فقال الرسول ﷺ: «بَلْ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»!

وبالفعل أطلق الرسول ﷺ صفوان بن أمية أربعة أشهر كاملة ليفكر..[1]!!

---

(١) القصة كاملة في الموطأ برواية يحيى الليثي عن مالك عن ابن شهاب (١١٣٢)، وفي مصنف عبد الرزاق عن الزهري (١٢٦٤٦).

ثم كان خروج رسول الله ﷺ إلى حنين، واحتاج إلى الدروع والسلاح كما مر بنا، وكان صفوان بن أمية من تجار السلاح المعروفين في مكة، ومع ذلك لم يأخذ رسول الله ﷺ السلاح منه عنوةً، إنما استقرضه بالثمن! ولم يستغل ضعفه، وقِلَّةَ أعوانه، وإسلام مكة كلها تقريبًا إلا هو.

وخرج صفوان مع المسلمين إلى حنين ليرعى أسلحته، وانكسر المسلمون في أول الأمر، ثم أُتبع الانكسار بانتصار مهيب، وجمع المسلمون غنائم لم يسمع بها العرب قبل ذلك، وقام رسول الله ﷺ بما لم يقم به قائد في تاريخ البشرية؛ إذ وقف يقسِّم الغنائم بكاملها -على كثرتها!!- على الجنود دون أن يحتفظ لنفسه بشيء!

وكان ﷺ يُعطي المؤلفة قلوبهم[1] من المسلمين مائةً مائةً من الإبل والشياه، وحقَّق المؤلفة قلوبهم من الثروة ما أذهل عقولهم، حتى تنازل السادة عن كبريائهم وعِزَّتهم، وذهبوا يطلبون العطاء المرة تلو المرة! والرسول ﷺ لا يردُّ سائلاً، ولا يمنع طالبًا.

ومن بعيد يقف صفوان بن أمية متحسِّرًا وهو يشاهد توزيع الغنائم، فهو ما زال من المشركين، وليس له إلا إيجار السلاح.. ولكنْ حَدَثَ في لحظةٍ ما أذهل صفوان، وأذهل المشاهدين للموقف والسامعين عنه،

---

(١) المؤلفة قلوبهم: قومٌ من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتَأْلُّفِهم؛ ليُرَغِّبوا مَن وراءهم في الإسلام؛ فلا تَحْمِلهم الحَمِيَّةُ مع ضَعْف نيَّاتهم على أن يكونوا إلْبًا مع الكفار على المسلمين، منهم الأَقْرَعُ بن حابِسٍ التميميُّ، والعباسُ بن مِرْداسٍ السُّلَمِيُّ، وعُيَيْنَةُ بن حِصْن الفَزارِيُّ، وأبو سفيانَ بن حَرْبٍ. ابن منظور: لسان العرب، مادة ألف ٩/٩.

وسيظلُّ مذهلاً للناس إلى يوم القيامة!!

لقد نادى رسولُ الله ﷺ صفوانَ بن أمية، وأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى الزعماء المسلمين من أهل مكة!!

أيتوقع إنسان -أيًّا كان كرمه أو سخاؤه- أن يحدث منه مثل هذا..؟!!

ولم تكن ذلك نهاية الموقف!

لقد وجد رسول الله ﷺ أن صفوان ما زال واقفًا، ينظر إلى شِعْبٍ من شِعاب حُنين، قد مُلِئ إبلاً وشياه، وقد بَدَتْ عليه علامات الانبهار والتعجُّب من كثرة الأنعام، فقال له ﷺ في رِقَّة: «أَبَا وَهْبٍ، يُعْجِبُكَ هَذَا الشِّعْبُ؟».

قال صفوان في صراحة شديدة: نَعَمْ.

إنه لا يستطيع أن يترفع وينكر.. إن المنظر باهر حقًّا!!

قال الرسول ﷺ في بساطة وكأنه يتنازل عن جمل أو جملين: «هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ»[1]!!

أذهلت المفاجأة صفوان، ووضحت أمام عينيه الحقيقة التي ظلت غائبة عنه سنين طويلة، ولم يجد صفوان بن أمية نفسه إلا قائلاً: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله!!

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٥٣-٤٣٤.

وأسلم صفوان في مكانه!!

يقول صفوان بن أمية: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ وأعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ[1]!!

أيُّ خير أصاب صفوان ﷺ..!!

أيُّ خير تحقق لقبيلة بني جُمَح عندما أسلم زعيمها..!!

وأيُّ خير تحقق لمكة..!!

وأيُّ خير تحقق للمسلمين، وقد أضيفت إليهم قوة الزعيم المكي المشهور صفوان بن أمية، والذي حسن إسلامه بعد ذلك، وصار من المجاهدين في سبيل الله؟!

إن كل هذا الخير قد تحقق بوادٍ من الإبل والشياه!

وما هي قيمة هذه الإبل والشياه؟!

إنها إمَّا أن تؤكل أو تموت..

إن الدنيا بكاملها -وليست الإبل والشياه فقط- تفنى وتزول، ولكن الذي لا يزول هو نعيم الجنة، وكم من البشر سيخلد في نعيم الجنة؛ لأنه أُعطى ذات يوم مجموعة من الإبل والشياه!

أليس هذا فهمًا راقيًا من رسول الله ﷺ لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وحقيقة الغنائم وحقيقة البشر؟!

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. وكثرة عطائه (٢٣١٣).

أليس هذا تقديرًا صائبًا من الرسول الحكيم ﷺ في هذه المقارنة السريعة التي عقدها؟!

الأغنام في مقابل الإسلام..!!

الدنيا في مقابل الآخرة..!!

لقد وجد الرسول ﷺ أن الأغنام -مهما كثرت- ثمن زهيد جدًّا للإسلام، فهانت عليه، بل هانت عليه الدنيا بكاملها، فأعطاها دون تردُّد، فالدنيا عنده لا تعدل جناح بعوضة، والدنيا عنده قطرة في يَمٍّ واسع، والدنيا عنده أهون من جَدْيٍ أَسَكَّ[1] مَيِّتٍ، ولم يكن هذا كلامًا نظريًّا فلسفيًّا، وإنما كان حقيقة رآها كل المعاصرين له ﷺ بعيونهم، كان واقعًا في حياته، وحياة الصحابة ﷺ، وحياة من عاملهم من المسلمين وغير المسلمين.

ولم يتبقَّ في يده شيء لنفسه ﷺ!!

لم يتبق ما يُعَوِّضُ به فقر السنين، وانقضاء العمر، وقد بلغ الستين بل تجاوزها!

لم يحتفظ بشيء، ورأى الناس منه ما جعل عقولهم تطيش، وأفئدتهم تضطرب، فانطلق الأعرابُ يزدحمون عليه ﷺ يطلبون المال والأنعام لأنفسهم قبل أن تنفد، حتى اضطروه ﷺ -وهو الزعيم المنتصر والقائد الأعلى- أن يلجأ إلى شجرة، وانتزع الأعراب رداءه، فقال في أدبٍ ورفقٍ، ولينٍ يليق به كنبيٍّ، ويجدر به كمُعَلِّمٍ:

---

(١) أسك: أي صغير الأذنين.

أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ عِنْدِي عَدَدَ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً، وَلاَ جَبَانًا، وَلاَ كَذَّابًا»[١].

وصدق ﷺ.. فما كان بخيلاً، ولا جبانًا، ولا كذابًا.

وكما حدث مع الزعماء السابقين، فقد مرَّ سهيل بن عمرو بالتجربة نفسها.

برُّه ﷺ مع سهيل بن عمرو:

كان سهيل بن عمرو من كبار زعماء قريش بل مكة، وكان من الزعماء الذين لهم تاريخ أسود وطويل مع رسول الله ﷺ، وكان من كبار السن، وله من الأولاد الكثير، وهؤلاء الأولاد معظمهم في جيش المسلمين الفاتح لمكة المكرمة، وبعد أن فُتِحَتْ مكة المكرمة، لم يجد له عونًا من الزعماء الذين كانوا معه قبل ذلك، فقد فرُّوا أمام الجيش الإسلامي، ففرَّ هو الآخر ودخل بيته كما يقول: «فانقحمت في بيتي، وأغلقت عليَّ بابي»!!

ثم يقول: وأرسلتُ إلى ابني عبد الله بن سهيل[٢] -وهو من جنود

---

(١) البخاري عن جبير بن مطعم: كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٢٩٧٩)، وابن حبان (٤٨٢٠)، ومالك برواية يحيى الليثي عن عمرو بن شعيب (٩٧٧).

(٢) عبد الله بن سهيل: هو عبد الله بن سهيل بن عمرو القرشي العامري، يكنى أبا سهيل، هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم رجع إلى مكة فأخذه أبوه وأوثقه عنده وفتنه في دينه، ثم خرج مع أبيه سهيل بن عمرو يوم بدر وكان يكتم أباه إسلامه، فلما نزل رسول الله ﷺ بدرًا انحاز من المشركين، وهرب إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، وشهد معه بدرًا والمشاهد كلها. استُشْهِدَ يوم اليمامة سنة ١٢هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٧٣٤).

الجيش الإسلامي الفاتح- أن اطلب لي جوارًا من محمد، وإني لا آمن من أن أُقتل، فليس أحد أسوأ أثرًا مني؛ فإني لقيت الرسول ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأُحُدًا ضد المسلمين[١].

إنه لصاحب تاريخ طويل في الصدِّ عن سبيل الله، وكان صارمًا وعنيدًا جدًّا يوم الحديبية، ثم إنه رفض انضمام ابنه إلى صف المسلمين برغم شفاعة الرسول ﷺ أكثر من مرة، ولكنه الآن يقف موقفًا صعبًا خطيرًا يجعل احتمال القتل واردًا جدًّا، وتملَّكه الرعب إلى الدرجة التي جعلته لا يتردد في أن يطلب من ابنه الصغير أن يتوسط له عند رسول الله ﷺ..!!

وفي هذا -كما هو واضح- ما فيه من جُرحٍ عميقٍ لنفس الزعيم الكبير..

يقول سهيل بن عمرو: ذهب عبد الله بن سهيل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، أَمِّنْه.

فقال ﷺ دون تردُّد: «نَعَمْ، هُوَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللهِ فَلْيَظْهَرْ»[٢]!!

ولنقارن هذا التعامل من الرسول ﷺ مع كبار زعماء مكة المكرمة بما يحدث عند احتلال دولةٍ لدولة أخرى..!!

إننا نرى الأمراء والوزراء والكبراء في البلد المغلوب وقد استُهْدِفُوا بالقتل أو النفي أو السجن لفترات طويلة، ولا يخفى على أحد مدى الإهانة

---

(١) انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧، وابن حجر: الإصابة ٣/ ٢١٩.

التي يتعرضون لها، لكن الرسول ﷺ لا يكتفي بإعطاء الأمان لزعماء العدو، بل ويَحُضُّ الجميع على احترامهم، وعلى عدم التعرُّض لهم بكلمة جارحة، ولا حتى بنظرة مؤذية، فيقول ﷺ لأصحابه في رُقِيٍّ عجيبٍ، وفي أدبٍ رفيعٍ: «مَنْ لَقِيَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو فَلاَ يَشُدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ»[1]!!

إن الرسول ﷺ يمنع الصحابة من أن يشددوا النظر إلى سهيل بن عمرو شماتةً فيه، أو تشفيًّا منه! بل إنه يفعل ما هو أعظم من ذلك، فيمدح سهيلاً، ويُثني عليه، فيقول ﷺ لأصحابه: «... فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلاً لَهُ عَقْلٌ وشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ جَهِلَ الإِسْلاَمَ، لَقَدْ رَأَى مَا كَانَ يُوضَعُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِنَافِعٍ».

والكلمات تعجز عن التعليق!!

وانطلق عبد الله بن سهيل إلى أبيه ليخبره بعفو الرسول ﷺ عنه، فلما ذكر له هذه الكلمات، قال سهيل: كان والله بارًّا صغيرًا وكبيرًا[2]!!

وتوجه سهيل بن عمرو إلى الرسول ﷺ وأسلم بين يديه، وتغيَّرت حياته كُلِّيَّةً بعد هذا اليوم، وكان -كما يقول الرواة- كثير الصلاة والصوم والصدقة، وخرج مجاهدًا في سبيل الله، بل كان أميرًا على إحدى فرق المسلمين في موقعة اليرموك.

فانظر إلى جميل فعله ﷺ وكيف كان يحوِّل حياة الناس إلى ما لا يتخيله

---

(١) انظر: المصدرين السابقين.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧.

أحد؛ وذلك بحسن المعاملة، وسعة الصدر، ونسيان الضغائن والأحقاد.

برُّه ﷺ مع فضالة بن عمير:

لقد كان فضالة بن عمير من أشدِّ أعداء الرسول ﷺ، ووصل حقده على الرسول ﷺ إلى الدرجة التي أراد معها أن يقتله في وقت الفتح..!!

وهذا أمر جِدُّ خطير؛ فالرسول ﷺ في وسط جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم، وإذا قام فضالة بن عمير بهذا التَهَوُّر فلا شك أنه مقتول، ومع ذلك فقد أعمى الحقد قلبه، فقرَّر أن يضحِّي بنفسه ليقتل الرسول ﷺ..!!

حمل فضالة السيف تحت ملابسه، ومرَّ بجوار الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال الرسول ﷺ: «أَفُضَالَةُ؟».

قال: نعم، فضالة يا رسول الله. (وكان يدَّعِي الإسلام في ذلك الوقت).

فقال ﷺ: «مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟».

قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله.

وضحك الرسول ﷺ، وقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ يَا فُضَالَةُ».

ثم وضع ﷺ يده على صدر فضالة، فسكن قلبه!!

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله

شيءٌ أحبُّ إليَّ منه ﷺ[1].

كان هذا هو تعامله ﷺ مع رجلٍ لم يكتفِ بالتخطيط لقتله فحسب، بل اجتهد في تطبيق ما خَطَّطَ، وحمل السيف واقترب، لولا أنْ حَفِظ الله ﷻ رسوله.

برُّه ﷺ مع هند بنت عتبة:

إذا كانت تلك المواقف التي مرت بنا تحوي من العظمة ما تحوي، فإن موقفه ﷺ مع هند بنت عتبة لا يقلُّ عظمة عمَّا سبق.

فقد كانت هند بنت عتبة من النساء اللاتي حاربن الإسلام طويلاً، ولسنواتٍ كثيرة، ولها ذكريات مؤلمة جدًّا في أذهان المسلمين، بل وعند رسول الله ﷺ شخصيًّا.

وهي زوجة أبي سفيان ﷺ، وابنة عتبة بن ربيعة القائد القرشي المشهور، وكانت من أشدِّ الناس حقدًا على المسلمين، وكان هذا الحقد كبيرًا من أول أيام الإسلام، ولكنه زاد بشدة وتضاعف بعد يوم بدر؛ بعد أن قُتل في ذلك اليوم أبوها عتبة بن ربيعة، وعمها شيبة بن ربيعة، وابنها حنظلة بن أبي سفيان، وأخوها الوليد بن عتبة..

فهؤلاء أربعة من أقرب الأقربين إليها، وهم جميعًا من سادة قريش؛ فأورث ذلك في قلبها كراهية لا يماثلها فيها أحد، وظلت على هذا العداء منذ بدر وحتى فتح مكة، وكانت من اللائي خرجن مع جيش الكفار في

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٤٢.

موقعة أحد، فكانت تُحمِّس الجيش القرشيَّ قدر ما تستطيع لقتال المسلمين، ولما فرَّ الجيش من أمام المسلمين في أول المعركة كانت تقذف في وجوههم التراب، وتدفعهم دفعًا لحرب المسلمين، ولم تفرَّ كما فرَّ الرجال..!!

ثم إنه بعد انتصار أهل مكة على المسلمين في نهايات موقعة أحد قامت بفعل شنيع، فقد قامت بالتمثيل بالجثث المسلمة الواحدة تلو الأخرى، فكانت تُقَطِّع الآذانَ والأنوفَ، حتى وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب ﷺ عمِّ الرسول ﷺ فبقرت بطنه، وأخرجت كبده، وفي حقدٍ شديد لاكت[1] منه قطعة، فما استساغتها، فلفظتها..!!

وقد أثَّر هذا الموقف بشدة في رسول الله ﷺ، وترك في قلبه جرحًا عميقًا..

يقول أبو هريرة ﷺ: وقف رسول الله ﷺ على حمزة، وقد مُثِّلَ به، فلم يَرَ منظرًا كان أوجع لقلبه منه، فقال: «رَحِمَكَ اللهُ أَيْ عَمِّ؛ فَلَقَدْ كُنْتَ وَصُولاً لِلرَّحِمِ، فَعُولاً لِلْخَيْرَاتِ»[2].

فتخيل مدى الغضب الذي في قلب رسول الله ﷺ ناحية هند.

ثم إن هند بنت عتبة خرجت مع المشركين في غزوة الأحزاب، بل استمرَّت في حربها ضد الإسلام حتى اللحظات الأخيرة قُبَيْلَ فتح مكة، حتى إنها رفضت ما طلبه زوجها من أهل مكة أن يدخلوا إلى بُيُوتهم؛ طلبًا

---

(١) لاكت: مضغت.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٦٠٤.

لأمان الرسول ﷺ، بل دَعَت أهل مكة لقتل زوجها أبي سفيان عندما أَصَرَّ على الخضوع لرسول الله ﷺ، ودفعتهم دفعًا إلى القتال[1]!!

إنه تاريخ طويل وشرس لهذه المرأة مع المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الطويلة للصدِّ عن سبيل الله، فتح رسول الله ﷺ مكَّة، وأقبل أهلُها من كلِّ مكان يبايعون على الإسلام..

ومن بعيد جاءت هند بنت عتبة، وهي منتقبة متنكِّرة لا يعرفها ﷺ، تريد أن تبايع كما يبايع الناس!!

وكانت بيعة النساء على: أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه ﷺ في معروف.

إن أيَّ مُطَّلِعٍ على الأمور لن يفترض في قدوم هند بنت عتبة للبيعة إلا محاولة منها للهروب من حكمٍ بالقتل هو لا محالة صادر!!

ولكن الموقف كان شديد البُعد عن توقعات الناس! فماذا فعل رسول الله ﷺ؟!

لقد بدأت النساء تبايع، وقال ﷺ لهن: «بَايِعْنَنِي عَلَى أَلاَّ تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا».

فقالت هند وهي منتقبة، والرسول ﷺ لا يعرفها: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال.

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٢٤.

أي أن هناك تفصيلات كثيرة للنساء، والرجال قد بايعوا بيعة واحدة، لكن الرسول ﷺ لم يلتفت إلى اعتراضها، وأكمل:

«وَلاَ تَسْرِقْنَ».

فوقفت هند وقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بَنِيّ، فهل عليَّ من حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟!

فقال ﷺ: «خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ»[1].

ثم انتبه ﷺ إلى أن هذه التي تتكلم هي هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، فقال ﷺ: «وَإِنَّكَ لَهُنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ»؟!

قالت: نعم، هند بنت عتبة، فاعفُ عمَّا سلف، عفا الله عنك.

إنها لحظة فاصلة في حياة هند بنت عتبة!

تُرى ماذا سيفعل رسول الله ﷺ عندما يتذكر تاريخها الطويل، وعندما يتذكر حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وما حدث له على يدها..؟!

لكن رسول الله ﷺ كعادته وطبيعته يعفو ويصفح، فلم يُعَلِّقْ بكلمةٍ واحدة على كل ذكرياته المحزنة، بل تنازل عن كل الحقوق، وقَبِل إسلامها ببساطة، وأكمل البيعة مع النساء وكأنه لم يتأثر أبدًا!!

قال رسول الله ﷺ: «وَلا تَزْنِينَ»..

---

(١) البخاري: كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة (٢٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الأقضية، باب قضية هند (١٧١٤).

واستمرت هند في اعتراضاتها، فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟!

فلم يتوقف الرسول ﷺ، بل أكمل:

«وَلا تَقْتُلْنَ أَوْلادَكُنَّ».

فقالت هند: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم كبارًا، هل تركت لنا ولدًا إلا قتلته يوم بدر؟! أنت قتلت آباءهم يوم بدر، وتوصينا الآن بأولادهم!!

فلم ينفعل رسول الله ﷺ ولم يقل لها: ولماذا قاتلناهم في بدر؟!

أفلم يكن ذلك لأن المشركين -ومنهم أبوك وعمك وأخوك وابنك- حاربونا ليل نهار ليفتنونا عن ديننا، وقهرونا وعذبونا، وصادروا ديارنا وأموالنا؟!

لم يقل رسول الله ﷺ شيئًا من ذلك، وإنما كان ردُّ فعله عجيبًا!!

لقد تبَسَّم ﷺ ولم يقل شيئًا، وأخذ الموضوع بشيء من البساطة، وقدَّر موقف هند بنت عتبة، ومدى صعوبة الإسلام عليها.. ثم قال ﷺ: «وَلا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ».

فقالت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح.

فقال ﷺ: «وَلا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ».

فقالت هند: والله ما جلسنا هنا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف[1].

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٥٤، ٣٥٥.

وهكذا بايعت نساء مكة جميعًا، بمن فيهن هند بنت عتبة رضي الله عنها هذه البيعة المباركة.

وسبحان مقلِّب القلوب! لقد حسن إسلام هند بنت عتبة، وكما كانت تخرج مع جيوش الكفار لتُحَمِّسَهَا لحرب المسلمين، بدأت تخرج مع جيوش المسلمين لتحمِّسَهُمْ لحرب الكفار!!

وكان من أشهر مواقفها يوم اليرموك عندما بدأت تشجِّع المسلمين على القتال في سبيل الله، وعلى خوض غمار المعركة الهائلة ضد مائتي ألف رومي، فكانت من أسباب النصر العظيمة في ذلك اليوم المجيد.

لقد أصبحت هند بنت عتبة رضي الله عنها إضافةً قويةً للأمة الإسلامية، وكانت البداية موقفًا بديعًا من الرسول ﷺ، وما أكثر الأعداءَ الذين تحوَّلُوا إلى أخلص الأصدقاء بموقف منه ﷺ..!!

***

المبحث الثاني

برُّه ﷺ مع زعماء القبائل الأخرى

لم يكن ذلك التسامح النبوي غير المتناهي في العظمة خاصًّا بزعماء قريش وحدها، رجالاً كانوا أو نساءً، وإنما تجاوزهم إلى كثير من قادة القبائل المختلفة. وفي هذا المبحث سنقتصر على ثلاثة من أبرزهم وأشدِّهم عداءً أو إيذاءً للنبي ﷺ.. وذلك من خلال ما يلي:

برُّه ﷺ مع مالك بن عوف النصري:

لقد كان موقف رسول الله ﷺ مع مالك بن عوف النصري زعيم قبائل هوازن موقفًا أعجب من أن يُستوعَب!!

كان مالك بن عوف زعيمًا خطيرًا من زعماء العرب، وقد استطاع أن يجمع جيشًا رهيبًا من قبائل هوازن وأعوانها من قبائل ثقيف وغيرها، بلغ قوامه خمسة وعشرين ألف مقاتل، وهو أكبر الجيوش العربية مطلقًا، وحفَّزهم تحفيزًا كبيرًا لقتال رسول الله ﷺ لدرجة أنهم قبلوا أن يأخذوا معهم إلى أرض القتال نساءهم وأولادهم وأنعامهم وأموالهم كحافزٍ لهم على عدم الفرار..!!

وهم بذلك يُضَحُّون بكلِّ ما يملكون من أجل قتال المسلمين.

لقد كان الهدف واضحًا في ذهن مالك بن عوف، وهو استئصال المسلمين من جذورهم، وخطَّط لذلك تخطيطًا مُحكَمًا، والتقى مع المسلمين في صدامٍ مروِّع بالقرب من وادي حنين[1]، وكادت خطته أن تُفْلِح، حتى زُلْزِلَ المسلمون زلزالاً شديدًا، وتعرضوا لأشد أزمة في تاريخهم مطلقًا، وكاد الوجود الإسلامي أن ينتهي، وكاد الرسول ﷺ أن يُقْتَلَ..!!

إنها أزمة الأزمات حقًّا!

ولكن شاء الله ﷻ بعد هذا الصدام المروِّع أن ينتصر المسلمون، وأن تَفِرَّ هوازن وثقيف أمام الجيش الإسلامي، وكان مالك بن عوف من الذين فرُّوا، وانضموا إلى أهل ثقيف في حصون الطائف..!!

وفي الوقت ذاته الذي فرَّ فيه مالك بن عوف، فكَّرت قبيلة هوازن في الإسلام، وكان الدافع الرئيسي لها في أول إسلامها هو استرداد النساء والأنعام التي أخذها المسلمون سبيًا وغنيمةً، ووجد مالك بن عوف نفسه وحيدًا شريدًا بعد أن كان قائدًا مُمكَّنًا..

لقد وجدَ نفسه بلا مالٍ ولا ثروةٍ، وكذلك بلا قبيلةٍ ولا عُزْوَةٍ، وفوق ذلك فهو لاجئ عند قبيلة أخرى -قبيلة ثقيف- لا يأمَنُها على نفسه..!!

لقد كان في أشدِّ حالات الانكسار التي من الممكن أن يتعرض لها قائد.

---

(١) وادي حنين: واد بين الطائف ومكة، قاتل فيه النبي ﷺ قبيلة هوازن بعد فتحه مكة، وانتصر عليهم في وقعة مشهورة.

وبينما هو في هذه الحالة المؤسفة المخزية، كان هناك من يفكِّر في أمره!!

إنه رسول الله ﷺ..!!

لقد سأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف، وإلى أيِّ شيءٍ صار، فقال قومه: إنه في الطائف في حصون منيعة يخشى على نفسه. فقال ﷺ في روعته المعهودة:

«أَخْبِرُوا مَالِكًا إِنْ أَتَانِي مُسْلِمًا رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ»[1]!!

هل يمكن أن يتخيل ذلك أحد..؟!

أهذا هو التعامل المتوَقَّع من قائد منتصر مع زعيم الجيش المعادي له، المهزوم أمامه؟!!

إن عموم القادة في العالم ليتلذذون ويستمتعون بمحاكمة ومعاقبة وإذلال زعماء أعدائهم.. أمَّا أن يَرْفُقَ الزعيم المنتصر بزعيم معادٍ له، ويرقَّ له، ويبذل له، ويعطيه بسخاء.. فهذا ما لا يَسْتَوْعِبُ فهمَه قادةُ العالم!!

ووجد مالك بن عوف في كلمات رسول الله ﷺ الإنقاذ له من أزمته، فأسرع مُقبلاً على رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه بين يديه، فَقَبِلَهُ ﷺ دون قيد ولا شرط، ولم يُعَنِّفْهُ، ولم يَلُمْهُ، ولم يستفسر منه عن شيء!!

بل إن رسول الله ﷺ فعل ما هو أعظم من ذلك وأرقى..!! لقد أعاد

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٤.

مالك بن عوف ﷺ زعيمًا مرة أخرى على هوازن، بل وكلَّفه بمهمَّة عسكرية في منتهى الأهمية، وهي مهمة حصار مدينة الطائف..!!

لقد احترم رسول الله ﷺ إمكانيات مالك بن عوف القيادية، وحفظ له سمعته ومكانته وقيمته، ولم يهدرها كما أُهْدِرَتْ آلاف وملايين الطاقات نتيجة عنجهية وتكبُّر بعض القادة.

لقد نسي رسول الله ﷺ ماضي مالك بن عوف في لحظة واحدة، وعامله معاملة القواد المحترمين، وحوَّل جهده من الإفساد في الأرض إلى إصلاحها.

فأيُّ خيرٍ عادَ على المسلمين..!! وأيُّ خيرٍ عادَ على هوازن..!! وأي خير عاد على مالك بن عوف..!!

هل نجد -بعد كل هذا- من يتَّهِمُ المسلمين بأنهم لا يعترفون بغيرهم أو يحترمون وجودهم؟ وهل في تاريخ غيرنا ما يشابه -ولو من بعيد- مواقف ذلكم النبي العظيم ﷺ؟!!

إن الحقيقة ظاهرة، وإن الأمر واضح، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

برُّه ﷺ مع عدي بن حاتم الطائي:

مثلما فعل رسول الله ﷺ مع مالك بن عوف فعل مع «عدي بن حاتم» زعيم قبيلة طيئ، وهي من القبائل التي قاومت الإسلام بشدَّة، ولفترة طويلة، وقد كان لها من الخلفيات ما يجعل قبولها للدخول في الدين الجديد «الإسلام» صعبًا..

فقد كانت من فروع ربيعة القحطانية[١]، وهم فرع بعيد جدًّا عن فروع قريش العدنانية، ومن ثَمَّ فالحساسية القَبَلِيَّة بينها وبين قريش كانت على أشدِّ ما يكون، وكان لقبيلة طيئ صنمها الخاص بها واسمه «الفِلْس»، وكان الناس يزورونه من أماكن بعيدة.. ثم إن فريقًا منهم تَنَصَّرَ ويَمَّمَ وجهه شطر الدولة الرومانية، فحالفها وتعاون معها.

ومن ثَم تجمعت عدة عوامل تمنع هذه القبيلة من قبول فكرة الإسلام: أمور قبلية، وأمور عقائدية، فضلاً عن موالاتهم للدولة الأولى في العالم وهي الدولة الرومانية.

فإذا أضفت إلى كل ذلك أنهم كانوا من القبائل القوية التي تبسط سيطرتها على مساحات شاسعة في الجزيرة، حتى لم يكن يأمن أحد على سفره إلى العراق أو الشام إلا بموافقةٍ وقبولٍ من رجال قبيلة طيئ.. إذا أضفت ذلك، علمت أن تفكيرهم في الإسلام سيكون متأخرًا جدًّا.

ثم تدرك مدى عداوتها للإسلام حين تعلم أنَّ من أبنائها «كعب بن الأشرف» الزعيم اليهودي المشهور، الذي ناصب المسلمين العداء في كل مكان؛ فقد كان أبوه من طيئ، وأمُّه من بني النضير، ولما اشتدَّ كيدُه للمسلمين وألَّب عليهم الجزيرة العربية بكاملها، أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقُتل، وفقدت طيئ بمقتله رمزًا مهمًّا من رموزها بين العرب.

---

(١) تنقسم القبائل العربية إلى قسمين كبيرين هما قحطان وعدنان، فمن فروع عدنان: ثقيف، وبنو كلاب، وبنو بكر بن وائل. ومن فروع قحطان: بجيلة، وبنو طيئ.

كان على رأس هذه القبيلة العزيزة «عدي بن حاتم الطائي»، وهو ابن الزعيم العربي الشهير «حاتم الطائي»، الذي كان مضربًا للمثل في الكرم وحسن الضيافة.

شعر «عدي بن حاتم» أن البساط يُسْحَبُ من تحت أقدامه، وأن مكانته تَهتَزُّ في الجزيرة العربية؛ فحقد حقدًا شديدًا على رسول الله ﷺ حتى يقول: «بُعث رسولُ الله ﷺ حين بُعث، فكرهته أشد ما كَرِهْتُ شيئًا قَطُّ»[1].

ومرَّت الأيام، وفُتِحَتْ مكة، وآمن أهلها، وأسلمت هوازن، وأرسل رسول الله ﷺ السرايا هنا وهناك تَهْدِمُ الأصنام التي تُعْبَدُ من دون الله، وكان من السرايا التي أرسلها ﷺ سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى قبيلة طيئ لهدم صنم الفِلْس، وقاومت طيئ مقاومة شديدة.

ثم إنهم فَرُّوا في كلِّ مكانٍ، وأُسِرَ بعضُهم، وفَرَّ عدي بن حاتم إلى حلفائه من ملوك الشام، وأُسِرَتْ أخته، ولكن رسول الله ﷺ مَنَّ عليها بغير فداء، فانطلقت إلى الشام تدعو أخاها إلى القدوم على رسول الله ﷺ وقالت له: «لقد فعل فِعْلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا أو راهبًا»[2]!!

وكان عدي بن حاتم قد كره حياته كلاجئ في غير بلاده.

ولنترك له الأمر ليُصَوِّرَ حاله حينئذٍ..

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٥٠٤، والذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٥٤.

(٢) أحمد (١٩٤٠٠)، وابن حبان (٧٢٠٦)، والطبراني في الكبير (١٣٩٢٥).

يقول عدي: «فكرهت مكاني الذي أنا فيه، حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت، فقلت: لآتينَّ هذا الرجل، فوالله إن كان صادقًا فلأسمعَنَّ منه، وإن كان كاذبًا ما هو بضائري»[1].

وجاء عدي بن حاتم إلى المدينة المنورة، وهو في هذه الحالة المنكسرة، وهو في هذا الضعف الذي لا يَخْفَى على أحد، فماذا فعل معه رسول الله ﷺ..؟!

يقول عدي بن حاتم: «قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ» ثلاثًا.. قُلْتُ: إِنِّي عَلَى دِينٍ. قَالَ: «أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ». فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟! قَالَ: «نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ». قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فَتَوَاضَعْتُ لَهَا.

فَقَالَ ﷺ: «أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلاَمِ؛ تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لاَ قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟». قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ». قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟! قَالَ: «نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ

---

(١) أحمد (١٩٣٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: بعضه صحيح وهذا إسناد حسن. والحاكم (٨٥٨٢)، وابن حبان (٦٦٧٩). وأخرج البخاري جزءًا من هذا الحديث، وهو المتعلق ببشريات الرسول ﷺ لعدي عن الحيرة وكنوز كسرى وفيض المال في المناقب، باب علامات النبوة (٣٤٠٠).

هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»[١].

هكذا وفي بساطة شديدة قَبِل رسول الله ﷺ هذا القائد الكبير، والزعيم المعروف في صفوف المسلمين، ولم يقُلْ في نفسه لعلَّه يحرِّك جموعَ طيئ ضد الإسلام، ولم يذكر حربه للمسلمين، ولا كرهه لهم.. إنما تعامل معه في منتهى الحلم والرفق والتقدير.

وقد قال عديٌّ ﷺ بعد ذلك: فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ؛ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا!!

برُّه ﷺ مع عبد ياليل بن عمرو الثقفي:

نودُّ أن نختم هذا المبحث بموقف رسول الله ﷺ مع شخصية عجيبة، ما توقَّع أحدٌ قطُّ أن يُحْسِنَ إليها؛ فقد تركت هذه الشخصية جروحًا عميقة في نفسه ﷺ لعدة سنوات، بل إنه عندما أتى للقاء رسول الله ﷺ لم يأته راغبًا في الإسلام كما أتى الآخرون، إنما جاء يجادل ويناور!!

إنها شخصية من أهم الشخصيات في الجزيرة العربية بكاملها.

إنه «عبد ياليل بن عمرو الثقفي».. زعيم قبيلة ثقيف المشهورة.

وتاريخه مع رسول الله ﷺ شديد السواد..!!

وتبدأ قصته مع رسول الله ﷺ عندما أُغْلِقَتْ أبوابُ الدعوة في مكة بعد وفاة أبي طالب عمِّ النبي ﷺ، فانطلق الرسول ﷺ إلى مدينة الطائف؛

---

(١) أحمد (١٩٣٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: بعضه صحيح وهذا إسناد حسن.

ليدعو قبيلة ثقيف إلى الله، لعلها تقف موقفًا مشرِّفًا معه، فالتقى مع زعماء ثقيف، وكانوا ثلاثة على رأسهم «عبد ياليل بن عمرو»، وعرض عليهم الأمر، فوجد منهم ما لم يتخيَّله من الجحود والإنكار والصد عن سبيل الله، بل وجد منهم السخرية والاستهزاء والاستخفاف، حتى قال زعيمهم «عبد ياليل بن عمرو»: إنه ليمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسله[١]!!

ثم كان من هذا الزعيم وأصحابه ما يَعرف الجميع من حثٍّ للغلمان والسفهاء أن يطاردوا رسول الله ﷺ وصاحبه زيد بن حارثة ﷺ بالحجارة والسباب، حتى أخرجوهما تمامًا من منطقة الطائف.

إن هذا الموقف السفيه من أشدِّ مواقف الدعوة ألمًا على نفس رسول الله ﷺ، وظلَّ الوضع على هذه الصورة القاتمة لسنوات متصلة..

فلم يؤمن أحد من ثقيف إلا القليل، بل لعلَّه لم يؤمن منهم قبل الفتح إلا الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة[٢] ﷺ، ثم قامت ثقيف بالتحالف مع هوازن لتكوين حزب ضخم يهدف إلى استئصال المسلمين، وذلك في موقعة حُنين في العام الثامن من الهجرة[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٥٤.

(٢) المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أسلم عام الخندق، وقدم مهاجرًا، وقيل: إن أول مشاهده الحديبية. روي عن الشعبي أنه قال: دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد. توفي بالكوفة سنة ٥٠هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ٧، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٤٥٤، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٨١٧٩).

(٣) بعد فتح مكة.

وعند هزيمتهم فرَّت جيوشهم إلى حصونهم في الطائف، فحاصرهم رسول الله ﷺ لمدة شهر كامل[١]، ولكنه لم يقدر على إخراجهم من الحصون، ومن ثَم غادر المنطقة دون أن يفتح الطائف. وكانت هذه صدمة للصحابة رضي الله عنهم، لكن رسول الله ﷺ هَوَّنَ عليهم الأمر، بل دعا لثقيف بالهداية.

وقد تفاقم أمر ثقيف عندما قتلت زعيمَها عروة بن مسعود[٢] رضي الله عنه، عندما أسلم ودعاهم إلى الإسلام، فأثَّر ذلك جدًّا في رسول الله ﷺ.

ومرَّت الأيام، وفي رمضان من العام التاسع من الهجرة وجدت قبيلة ثقيف أن قوة المسلمين أصبحت هي القوة الأولى في الجزيرة العربية، وبخاصة بعد فرار الجيوش الرومانية منها في تبوك، ففكَّرت أن تأتي المدينة لتبايع على الإسلام!!

وكان واضحًا من كلامهم وترتيبهم أنهم ما جاءوا حُبًّا للإسلام، ولا اقتناعًا به، ولكن لرؤيتهم أنهم لا طاقة لهم بحرب المسلمين، ومن ثَمَّ كوَّنوا وفدًا يُحاور ويفاوض رسول الله ﷺ، ويصل معه إلى أفضل ما يمكن أن يصلوا إليه، وجعلوا على رأس هذا الوفد «عبد ياليل بن عمرو» الزعيم

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧١.

(٢) هو عروة بن مسعود بن ثقيف، وهو ممن أرسلته قريش إلى النبي ﷺ يوم الحديبية، أعلن إسلامه أمام قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، وقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قُتِلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم، فادفنوني معهم. فدفنوه معهم. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٧٦، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٥٢٧).

القديم الذي سَخِرَ في يومٍ ما من رسول الله ﷺ سخريةً شديدة، ولكن دارت الأيام دورتها وجاء زعيم ثقيف منكسرًا أمام الرسول العظيم ﷺ، الذي مُكِّن له في الأرض، وأصبح في مركز القوة.

استقبل رسول الله ﷺ وفد ثقيف وعلى رأسه «عبد ياليل» خير استقبال، ولم يُذَكِّرْهُمْ بماضيهم أبدًا، ولم يقل لهم شيئًا عن سخريتهم منه يوم ذهب إليهم ﷺ طالبًا نصرتهم، ولم يقل: هذه بتلك، أو: اليومَ باليومِ الذي سخرتم فيه مني.. بل قابلهم ﷺ بالترحاب وبالبسمة وبالكرم وبالضيافة وبالهدية، بل جلس معهم يستمع لمفاوضاتهم ومقترحاتهم التي كانت في غاية السفاهة، ومع ذلك لم ينفعل عليهم، أو يغضب منهم، بل ناقشهم في هدوء، وتكلَّم معهم في رَوِيَّة!!

لقد طلبوا أن يُسلِموا بشروط منها: أن يأذن لهم في الربا والزنا وفي الخمر، وأن يُعْفَوْا من الصلاة، وأن تُتْرَكَ لهم اللات[1] دون أن تُكسر[2]!!

لقد كانت مطالب سفيهة تدل على عدم فقهٍ لمعنى الإسلام، ومع سفاهة تلك المطالب إلا أن الرسول ﷺ لم يفقد أعصابه أو يتركهم، إنما أخذ يُفَسِّرُ لهم ويشرح، ورفض مطالبهم هذه في منتهى الأدب، وبأسلوب يَغْلِبُ عليه الرفق واللين، وكان يُحاورهم كل ليلة بعد صلاة العشاء، ويُكثر من الحديث معهم، وكان قد ضرب لهم قُبَّة[3] في المسجد النبوي[4] تكريمًا لهم، وتعظيمًا لقَدْرِهِم.

---

(١) اللات: اسْمُ صَنَم كان لثقيف بالطائف. ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر ٤/ ٤١٣.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٣٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٠٦.

(٣) قبة: خيمة.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣١٣.

هذا مع أنهم لم يُسلموا بعدُ..

وفي نهاية الأمر، قَبِلَ وفد ثقيف بالإسلام كاملاً دون انتقاص ولا تفريط، ودخلت بعد ذلك قبيلة ثقيف في الإسلام، وكانت من أكثر الناس ثباتًا على الإسلام حتى في زمان الردة.

وليس من شكٍّ أن رسول الله ﷺ لو سلك معهم مسلكًا عنيفًا، أو أظهر فيهم تشفِّيًا وشماتة لكانت حالهم غير هذه الحال، ولأصبحوا حَجَرَ عَثْرَةٍ في طريق الأمن والأمان في الجزيرة العربية، ولكنه ﷺ يُعَلِّمُنَا ما دأب على تذكيرنا به حين قال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»(١).

ولقد رأينا الخير الواسع الذي عمَّ الجزيرة بكاملها، بل عمَّ العالم بهذا النهج الذي انتهجه في التعامل مع الناس، وفي التعامل مع المخالفين له، والمعترضين عليه، والطاعنين فيه الساخرين منه، وقد صدق ﷺ حين وصف قيمة الرفق بقوله المختصر المبدع: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ»(٢).

وصلِّ اللهم وسلِّمْ وبارِكْ على مَنْ عَلَّمَ الناسَ الخيرَ، وهَدَاهم إلى الرُّشد.. رسول الله محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلِّم.

***

(١) مسلم عن عائشة رضي الله عنها: كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣)، وابن حبان (٥٥٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٥٨٦).

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق (٢٥٩٢)، وأبو داود (٤٨٠٩)، وابن ماجه (٣٦٨٧)، وأحمد (١٩٢٢٩)، وابن حبان (٥٤٨) عن جرير بن عبد الله البجلي.